النساجون لهاوبتمن

بقلم: الدكتور مصطفى ماهر

تمهيد :

يتربع جرهرت هاوپتمن على قمة من قمم الأدب الألمانى أتيحت له أو أتاحها هو لنفسه فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . أوتى جرهرت هاوپتمن من العمر ما أوتى العظماء المعمرون أمثال يوهان ڤولفجنج جوته فى ألمانيا وفكتور هوجو فى فرنسا وليو تولستوى فى روسيا فكرس هذا العمر المديد لانشاء أعمال أدبية رائعة صور بها خلجات النفس الانسانية ونطق فيها بلسانها وتحرك فيها بحركاتها ، فأضاف الى البناء الثقافى الانسانى لبنات تمتزج فيها الآمال والآلام فى عصر تفجرت فيه فى الدنيا كلها ينابيع هائلة من الطاقات والامكانيات ، فانسابت بالآمال والآلام وتمددت الى أبعاد جديدة من السعادة والشقاء فى وقت واحد . عاش جرهرت هاوپتمن فترة مضطربة من تاريخ أمته ، فشهد غلاما حرب عام ١٨٧٠ وكهلا حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ وشيخا حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ ، وتدرج بين ألوان من الحكومات الملكية والجمهورية والدكتاتورية وبين ضروب من النظم السياسية والاجتماعية المنطلقة والملتزمة ، وتنقل فى ربوع الديار الألمانية وساح فى كثير من ديار الأرض متعلما ومعلما . وعاش حتى رأى أدبه ينطلق فى آفاق الأرض ويحظى بتقدير من يطلعونه عليه فى لغته الأصلية أو فى ترجمات عديدة ، وتمتع بتقدير الهيئات والجامعات ، فنال الكثير من الجوائز وعلى رأسها جائزة نوبل ، ونال العديد من شهادات الدكتوراه الفخرية وعلى رأسها شهادة جامعة أكسفورد وجامعة لايبتسج ذلكم هو عملاق النثر والشعر ، عملاق المسرح والقصة جرهرت هاوپتمن .

حياته :

ولد جرهرت هاوپتمن فى ١٥ نوفمبر عام ١٨٦٢ فى مدينة « باد زالتسبرون » بجبال بمنطقة شليزيا يطلقون عليها اسم « أويلنجبرجه » ، وكان جرهرت الابن الرابع ، أما مدينة « باد زالتسبرون » فكانت

مكانا معروفا يشتهر بالسياحة والاستجمام ، يقصده أغنياء ألمانيا وأغنياء بولونيا ، ويحترف سكانه فيما يحترفونه من مهن تدبير المطاعم والفنادق والحانات ، كذلك كانت المنطقة تعرف شيئا من صناعة ، فكان فيها استخراج الفحم من المناجم، وكان فيها صناعة النسيج . وقد شهدت المنطقة فى عام ١٨٤٤ ثورة قام بها المشتغلون بصناعة النسيج اليدوى ، لسوء حالهم . وتشاء الظروف أن يكون من بين معاينيها جد جرهرت ، كارل ايرنفريد هاوپتمن ، الذى مالبث أن تحول الى افتتاح مطعم ثم فندق ، هو « فندق التاج » فى « أوبرزالتسبرون » ، وقد تولى روبرت هاوپتمن أبو جرهرت ، ادارة هذا الفندقفيما بعد ، بعد تقدم الجد فى السن ووفاته ، وأحدث بالفندق من التحسينات الشىء الكثير ، ولعله أصاب الكثير من الربح ، مما مكنه من الزواج بماريه شتريلر سليلة عائلة رفيعة تقوم على خدمة الأمير پليس وتتصل به اتصالا وثيقا . وقد أدى هذا الزواج غيرالمتكافىء من ناحية المستويات الاجتماعية القائمة فى ذلك الوقت ، الى خلق جو من الاضطراب فى العلاقات بين روبرت هاوپتمن وأسرة زوجته ، عانى منه الأولاد وعانى منه الصبى جرهرت خاصة وسرعان ماتفتح فكره على الفارق بين الأغنياء المترفين الذين يلتمسون الاستجمام والراحة فى فندق أبيه ، وبين العمال الكادحين الذين يتضورون جوعا ويعانون الكثير من البؤس والعنت ، والذين لايستطيعون تحسين حالهم والتماس شىء من الرفعة لأن الأغنياء يحتكرون هذه الرفعة . على أن الصبى جرهرت امتص الكثير من عناصر البيئة المحيطة به ولم يقف عند حد التأثر بهذه المشكلات الاجتماعية ، امتص الاهتمام بالسياحة فى المنطقة الجميلة والتطلع الى الأرض والناس ، وامتص الاهتمام بالجمال المصور ، فقد تزينت حيطان فندق التاج ، والفنادق الأخرى ، بلوحات أصيلة للفنانين المعروفين من ألمان وهولنديين وامتص من اخوته الكبار الاهتمام بالمسرح وقد حكى أن اخوته كانوا يمثلون أمامه مسرحيات مثل فاوست وهاملت .

وسيق الصبى الى المدرسة فتخلف فيها أشد التخلف . وما أقل العباقرة الذين لايتخلفون فى المدارس ، وختم جرهرت المدرسة الابتدائية فى عام ١٨٧٤ وتركها كارها لها ولأهلها ولعلمها . وانتقل الى المدرسة الثانوية فى بريسلاو ، التى اتصلت اليها خبرة الأسرة ، فقد سبق اليها كارل أخو جرهرت الأكبر ودرس بنجاح كبير (كارل هاوپتمن فيما بعد أديب وعالم طبيعى مشهور) ، ولكن جرهرت سار فى المدرسة الثانوية سيرته فى المدرسة الابتدائية ، فكان منصرفا متثاقلا مهملا . وترك المدرسة فى عام ١٨٧٨ ليذهب الى ضيعة بعض الأقارب عله أن يتعلم فيها الزراعة . ولكن مرضا أصاب صدره أقعده عن هذه الحرفة القاسية . ولما أبل من مرضه عاد الى بريسلاو ليفكر فى مستقبله. وهناك وجد نفرا من الشباب يعدون أنفسهم لامتحان يؤخذ الناجحون فيه للجيش ، فحاول الانخراط فى هذا السبيل فلم يفلح . ولكن اقامته فى بريسلاو هذه المرة أتاحت له صلة بالمسرح ، هناك شاهد يوليوس قيصر لشكسبير وماكبث له أيضا ، وشاهد ڤيلهلم تل لشيللر ومعركة هرمن لكلايست . كذلك اتصل عن طريق أخيه كارل بنفر من شباب المفكرين ممن سيكونون لهم فيما بعد شأن ، ومنهم ألفريد بليتس الذى أولى علوم الحياة ونظريات الأجناس وأفكار الاجتماع اهتماما كبيرا ، وكان من بين

أفكاره ماسيطر على الفكر الألمانى أمدا طويلا عن صواب أو خطأ .

وتبين مخلفات جرهرت هاوپتمن أنه بدأ فى هذه الفترة يصيغ القصائد ويجرب غير ذلك من ألوان التصنيف الأدبى . ولكنه لم يصمم على احتراف الأدب بعد ، وفى عام ١٨٨٠ عاد من بريسلاو الى أهله . وعاد البحث والتفكير فى أمر مستقبله والحرفة التى تصلح له . ونصح بعض الفنانين والد الشاب الحائر أن يبعث به الى مدرسة من مدارس الفنون عله أن يصبح رساما أو نحاتا ، فقد وضحت له موهبة فنية لاشك فيها ، وعاد جرهرت الى بريسلاو لينتظم فى قسم النحت بمدرسة الفنون والصنايع الملكية . وأوشك الشاب على الاتجاه فى هذا الطريق لو لم تتدخل ظروف عائلته المادية لتبعده عنه . كانت أحوال الفندق قد ساءت ، واضطر أبوه الى بيعه بالمزاد العلنى ، والانتقال الى « زورجاو » لادارة مطعم المحطة بها ، وكانت هذه التطورات تعنى توقف الراتب الذى كان جرهرت يحصل عليه من أبيه، وكانت تعنى بالتالى اضطرابه بين الحاجة والسعى للتغلب عليها . وهكذا تشهد هذه الفترة الشاب وهو يخالط ألوانا من الناس من فنانين وبلطجية ، وتشهده وهو يوشك على الانحراف ، حتى قررت المدرسة فصله ، ولم ترجعه المدرسة الا بعد أن تدخل استاذه لصالحه وأقنع هيئة الأساتذة بموهبة الطالب المفصول ، ويحكى جرهرت أنه قرأ على الأساتذة شيئا من شعره فرضوا عنه ، ولكنه ترك المدرسة فى عام ١٨٨٢ وسافر الى (يينا) والتحق بجامعتها كطالب مستمع واختلف الى محاضرات فى التاريخ وفى تاريخ الفن استمع الى نفر من الأساتذة الكبار فى الفلسفة التى كانت تهتم بنظريات التطور وبمناهج العلوم الوضعية وبالمثالية واحتك جرهرت بأصحاب المواهب والأفكار الجديدة واتصل خاصة بالأستاذ بوتلينك الذى استمع الى محاولاته الأدبية فتولاه بالنقد البناء والتوجيه .

وحتى هذا الوقت لم يكن جرهرت هاوپتمن قد اختار بين النحت والأدب، كان يعد نفسه اعدادا عاما حرا من القيود الأكاديمية ، ويجرب الفنيين معا . وما أشبه هاوبتمن بجوته فى مثل هذا السن تقريبا ، كان جوته محتارا بين الرسم والأدب ، الى أن جرفه تيار الأدب جرفا ، ولعل جرهرت هاوپتمن ينتظر الى أن يجرفه تيار الأدب هو الآخر ، فى عام ١٨٨٣ أى فى العام التالى مباشرة ترك جرجرت الجامعة وصحب أخاه كارل فى رحلة قادته الى البرتغال وأسبانيا وايطاليا وسويسرا ــ وتعلم فى أثناء الرحلة الكثير ، وتحركت نفسه بالمشاعر والأحاسيس التى انطلقت فى اطار من الشعر هو قصيدة « بروميتيدنلوس » ، وظلت تعتمل فى وجدانه ذخيرة للمستقبل ، وفى نهاية عام ١٨٨٣ عاد جرهرت هاوبتمن من ألمانيا الى ايطاليا واتخذ فى روما قاعة يمارس فن النحت فيها ، ولكن هذا اللون من النشاط مالبث أن توقف ، فقد أصيب جرهرت بمرض التيفوس ، ولزم الفراش مدة طويلة عاد بعدها الى ألمانيا ، وفى ألمانيا اشترك فى « الأكاديمية الملكية » بمدينة دريسدن ، بقسم الرسم ، ثم مالبث أن انتقل الى برلين يختلف الى جامعتها طالبا مستمعا تارة ويقضى الليالى فى المسارح وقاعات الموسيقى تارة أخرى . وكان بين هذا وذاك يحاول احتراف التمثيل ، واتخذ الى ذلك الاحتراف خطوة هامة تتمثل فى تعلم فن التمثيل المسرحى على يد الفنان الكسندر هيسلر ، وكانت حياة هاوبتمن فى ذلك تتسم بالاضطراب والاندماج فى الحياة اندماجا أوشك على أن يودى بحياته تماما .

ولكن المقادير شاءت أن يدخل شيء من الاتزان الى حياة جرهرت هاوبتمن ، وأن يأتى هذا عن طريق أخويه جيورج وكارل . كان هذان الأخوان قد تعرفا على اثنتين من بنات تاجر غنى فى دريسدن هو (تينيمن) ، وتزوجا ، فانفتح أمام جرهرت الطريق الى صغرى البنات الخمس ماريه فتزوجها فى عام ١٨٨٥ وأقام الاثنان فى برلين حيث عاود جرهرت الدرس فى الجامعة وعاود مخالطة أوساط الأدباء ، وقد انتظمت أحواله المالية بفضل هذا الزواج السعيد . ولكن المرض اشتد بجرهرت ، فأوصاه الأطباء بتغيير الجو والاستجمام ، وهكذا قام برحلة الى جزيرة « روجن » فى بحر البلطيق مع أخيه كارل وصديق هو ارنست شميت. هناك فى هذه الجزيرة انفجرت فى نفس الأديب الفنان ينابيع الابداع الأدبى كثمرة من ثمار اتصاله بالأرض والناس فى هذه الجزيرة الفريدة . هناك جمع عددا من القصائد والأغنيات والقصص والأساطير الشعبية التى يضمها « الكتاب المزركش » الذى أصدره فى عام ١٨٨٧ . وقد أتاحت له هذه الرحلة زيارة جزيرة (هيدينزيه) ، التى أعجبته أيما اعجاب ، وكانت فى ذلك الوقت جزيرة منعزلة لم يمتد اليها تيار السياحة والاستجمام بعد . ومازال حبه لهذه الجزيرة يشتد حتى أصبحت بالنسبة اليه وطنا ثانيا ، وفيها اليوم قبره .

وقد شهد هذا العام ١٨٨٥ نشر قصيدة « بروميتيدنلوس » . على أن جرهرت ما لبث أن رفض هذا العمل ، وجمع النسخ المطبوعة من السوق . وانتقل الى السكنى فى « اركنر » من ضواحى برلين ، وهى مكان يمتاز بالهدوء والخضرة . وأكثر جرهرت هاوپتمن من النزهة بين المروج والغابات ، وعمق ملاحظته الناس فيما يقولون ويعملون . وقد أفاده هذا الانتقال فائدة كبيرة ، فمن ناحية تحسنت صحته ، ومن ناحية ثانية وسع قراءاته وشمل بها أئمة الواقعية والطبيعية فى الخارج من أمثال اميل زولا وليو تولستوى وتورجنييف ودستويفسكى ، كذلك قرأ فى علم الاجتماع والفلسفة واهتم خاصة بالكتاب المقدس وكون صورة عن يسوع المسيح لن تلبث أن تتجسم فى بعض مؤلفاته القادمة .

والعام الحاسم فى انطلاق هاوپتمن هو عام ١٨٨٨. فى هذا العام نشر جرهرت هاوپتمن قصتين: « فاشنج » (الكرنفال) و « تيل ، حارس قضبان السكك الحديدية » ، وعبر فى القصتين عن النزعة المعروفة فى تاريخ الأدب باسم « الطبيعية » ، والتى كانت الضمائر تختلج بها فى ألمانيا فى ذلك الوقت وتطالب بها . وكان المطالبون بالطبيعية يثورون أولا على ما أسموه بالأدب الرسمى الذى عرفته ألمانيا أيام بسمارك وخاصة فى أعقاب حرب عام ١٨٧٠ وكانوا ثانيا يريدون أدبا يعبر عن الواقع الذى يتسم بالاضطراب الاجتماعى وبالتقدم العلمى فى وقت واحد . كانت المطالبة بالأدب الجديد نشيطة فى جمعية أدبية فى برلين تأسست عام ١٨٨٦ وكان من رجالها الأديبان «آرنو هولتس» و « يوهانس شلاف » من أئمة الطبيعية الألمانية وكانت الجمعية تتسمى باسم صعب الترجمة الى العربية أقرب ما نجده له عبارة « الى الصميم » ، وهو اسم أراد به أدباء الجمعية التعبير عن عزمهم على اختراق كل ما يعترضهم وعلى فرض رأيهم وعلى بلوغ صميم الأشياء . وكانت المطالبة بالأدب الجديدة نشيطة كذلك فى « المسرح الحر » الذى كان يرأسه الفنان أوتو برام ، والذى كان يولى

المسرحيات الأجنبية المعبرة عن النزعة الطبيعية الاهتمام الأكبر . كان جرهرت هاوپتمن على علاقة بالبيئتين التقدميتين ، وكان له فيهما نشاطه . ومن الأمور الهامة التى تستحق الذكر أن جرهرت هاوپتمن قرأ هناك محاضرة عن أديب ألمانى عظيم كان النسيان قد واراه ، هو « جيورج بوشنر » الذى وضع فى مؤلفاته القليلة أسس اتجاهات أدبية عديدة ازدهرت فيما بعد ، وما من شك فى أن الطبيعية حين تمجده وترى فيها رائدها الأول، تصيب الصواب كله .وكانت هناك الى جانب هذه البيئات مجلات تدعو للمذهب الجديد وتتيح فرصة النشر للمحاولين فيه . من هذه المجلات مجلة « المجتمع » ومجلة « مسرح حر للحياة الجديدة » التى تغير اسمها أكثر من مرة الى أن انتهى الى اسم « المجلة الجديدة » .

تأثر هاوپتمن بهذه البيئات والمجلات ، وتأثر بالصداقات الجديدة ، وازداد ثروة فى هذا المضمار عندما سافر فى عام ١٨٨٨ الى زيوريخ لزيارة أخيه كارل ، واتصل بأدباء وعلماء نابهين منهم على سبيل المثال العالم النفسانى «فوريل». ولاشك فى أن جرهرت هاوپتمن فكر فى موضوع مسرحية « النساجون » فى ذلك الوقت بزيوريخ، ولاشك كذلك فى أنه وضع هناك خطة مسرحية « قبل الشروق » . وتمت مسرحية «قبل الشروق» فى عام ١٨٨٩ وظهرت على المسرح فى ٣٠ أكتوبر من العام نفسه (ظهرت على المسرح الحر) فأحدثت دويا هائلا. كانت قطعة قوية تمثل الأدب الجديدة، وتجسم الطبيعية ، فتحمس لها أشياع الطبيعية أشد التحمس وهاجمها أعداء الطبيعية أشد الهجوم ، واشتهر جرهرت هاوپتمن على أية حال، وتأكدت موهبته وقدرته الخلاقة ، واطمأن الى بلوغه مستوى يمكنه من مواجهة الجمهور . وان كان عام ١٨٨٨ هو العام الذى شهد انطلاقه الحقيقى ، فان عام ١٨٨٩ لا يقل أهمية لأنه هو العام الذى شهد رسوخ أقدام هاوبتمن فى ميدان الأدب عامة وفى ميدان المسرح خاصة . وتتابعت الأعمال المسرحية فجاءت مسرحية « عيد السلام » عام ١٨٨٩ ومسرحية « بشر فى عزلة » فى العام التالى ، وكلاهما من النوع الطبيعى .

وفى عام ١٨٩١ انتقل هاوپتمن للسكنى فى حى شارلوتنبرج فى برلين ، ثم ترك البيت الى « شرايبرهاو » للسكنى فى بيت جديد كانت الأسرة قد ابتنته هناك . وفى شرايبرهاو كتب هاوپتمن الدرتين « النساجون » و « فراء الحرداء » فى عام ١٨٩٢ . وقد تعرضت مسرحية النساجون عند عرضها لقرار من البوليس بوقف تمثيلها بحجة تحريضها الناس على الثورة، فعارض جرهرت هاوبتمن فى هذا القرار أمام المحكمة ، التى حكمت فى عام ١٨٩٣ بالسماح بعرضها . ومهما يكن من أمر فقد أدى حكم المحكمة هذا الى مقاطعة الامبراطور للمسرح . حقيقة أن جرهرت هاوپتمن لم يكن عضوا فى منظمات تسعى الى قلب نظام الحكم ، كذلك لم يكن عضوا فى حزب من تلك الأحزاب التى تطالب باصلاحات مذهبية معينة ، ولكن أعمال جرهرت هاوپتمن كانت بتصويرها الواقع الطبيعى تكشف شرور النبلاء وحماقة الموظفين وصلافة الأغنياء وتعاميهم عن الفقراء . ويبدو أن مسرحية « فراء الحرداء » كان لها مكان خاص فى نفس هاوپتمن لأنه أكملها بمسرحية أخرى فى عام ١٩٠١ هى مسرحية « الديك الأحمر » .

كانت السمة الغالبة على أعمال هاوپتمن حتى

هذه اللحظة هى السمة الطبيعية المهتمة بالأحوال الاجتماعية وبما يعانيه الكادحون من عنت وظلم وبؤس . ولكن عنصرا آخر بدأ يفرض نفسه على انتاج هاوبتمن ، ثانويا فى الجزء الأخير من « النساجون » وأساسيا فى المؤلفات التالية وخاصة فى مسرحية « رحلة هانيله الى السماء » ١٨٩٤ ، هذا العنصر هو الصوفية ــ وللصوفية جذور عميقة فى منطقة شليزيا ــ وما ارتبط بها من اهتمام بالأحلام والهلوسة والخيالات والأوهام. وتغير موقف المعاصرين من هاوپتمن . أصحاب الطبيعية وأشياعها ثاروا عليه وأنكروا هذا التحول، وأصحاب الرومانتيكية الجديدة هللوا لهذا النصر العظيم ، وفرحوا بالغنائية والشاعرية الجديدة . ــ وقد أحدثت مسرحية «رحلة هانيله الى السماء » بطريق غير مباشر تغييرا هائلا فى حياة هاوپتمن . كانت هذه المسرحية تتطلب شيئا من الموسيقى نهض بتأليفه المؤلف الموسيقى ماكس مارشالك ، تحولت أثناء ذلك علاقة جرهرت هاوپتمن بأخت ماكس مارشالك ، مارجريته ، من صداقة الى حب . وكان جرهرت يعرفها منذ كانت فى الثالثة عشرة من عمرها . وكان هو فى ذلك الوقت ينعم بحياة عائلية طبيعية مع زوجته ماريه وأبنائه الثلاثة : ايڤو وايكرت وكلاوس . وأدت هذه العلاقة الى انقلاب فى البيت ، واتفق هاوپتمن مع زوجته على أن يتريثا فى اتخاذ قرار وعلى أن يرحل الى زيورخ ليفكر فى الأمر مليا ويعود بصورة واضحة سليمة لمستقبله ومستقبل أسرته.

وبالفعل سافر الى زيوريخ ، الى صديقه بولشه، فلما عاد علم أن زوجته أخذت الأولاد وسافرت الى أمريكا . وركب البحر اليها ، وكان لقاء وكان صفاء ، والتأم شمل الأسرة . ويبدو أن هاوپتمن فكر فى البقاء فى أمريكا ، ولكن أسلوب الحياة هناك لم يعجبه تماما فعاد والأسرة الى ألمانيا . وعاد قلبه يحن الى مارجريته . فارتبط بها من جديد وسافر معها فى رحلات مختلفة الى ايطاليا والى غير ايطاليا ، واستلهمها الكثير من الطاقة الابداعية . وفى عام ١٩٠١ وضعت مارجريته ابنا هو بنفينوتو (اسم ايطالى معناه : مرحبا) ، فأقام لها بيتا فى انجنيتندورف وأقام فى الوقت نفسه بيتا لزوجته وأولاده فى دريسدن ، وكان يقسم وقته الى اقامة فى انجنيتندورف واقامة فى دريسدن واقامة فى برلين، على أنه كان أغلب الوقت لا يقيم فى مكان بعينه بل يعيش حياة الترحال والسياحة . وفى عام ١٩٠٤ وافقت السيدة ماريه هاوبتمن على الطلاق وتزوج جرهرت هاوپتمن رفيقته مرجريته . ــ ولم تمر سنوات الاضطراب العائلى التى عاشها هاوبتمن دون أن تترك أثرها فى انتاجه الأدبى ، خاصة أن تفكك الأسرة كان فى ذلك الوقت مشكلة من مشكلات الساعة فى ألمانيا ، بل دخلت فى أعمال هامة مثل مسرحية « الحوزى هنشل » عام ١٨٩٨ .

فى عام ١٨٩٦ أخرج هاوپتمن مسرحية « فلوريان جاير » التى تدخل فى مجموعة مؤلفاته ذات النزعة الفردية فى نطاق الطبيعية ، فالمسرحية تدور حول شخصية قائد من قادة ثورة الفلاحين الشهيرة فى ألمانيا عام ١٥٢٥ . وتلت هذه المسرحية مسرحيات أخرى تهتم بالأساطير وما شابهها ، هى مسرحيات « ايلجا » ١٨٩٦ و «الناقوس الغارق» ١٨٩٦ و « شلوك وياو » ١٨٩٩ . وصار هاوپتمن يتأرجح بين المثالية والطبيعية ، بين الصوفية والوضعية ، بين الدقة الموضوعبة الجامدة التهويم الذاتى المنطلق ، وينتج فى هذا الاتجاه

تارة وفى الآخر تارة أخرى . فى عام ١٩٠٢ جاءت مسرحية « هاينريش المسكين » وفى العام التالى « روزه بيرنت » . ومع هذا الانتاج الضخم توالت عليه ألوان من التكريم فمن جائزة جريلبارتسر الأدبية الى دكتوراه اكسفورد الفخرية (١٩٠٥) الى دكتوراه لايبتسج الفخرية ، الى صلات بأدباء عصره الكبار أمثال ريلكة وهوفمنستال وچورج برناردشو . وكان اسم هاوپتمن قد عرف فى بلاد كثيرة وخاصة فى فرنسا وانجلترا وأمريكا وروسيا .

وهناك فى حياة هاوپتمن حدث يمكن مقارنته بشبيه له فى حياة جوته هذا الحدث نعنى به رحلة هاوپتمن الى اليونان فى عام ١٩٠٧ ، وشبيهه هو رحلة جوته الى ايطاليا عام ١٧٨٦ . كانت رحلة جوته الى ايطاليا نقطة التحول الى الكلاسيكية، وكانت رحلة هاوپتمن الى اليونان بداية طريق الى كلاسيكية جديدة . كانت رحلة هاوبتمن الى اليونان رحلة دراسة عمل فيها بالتطلع الى الآثار ما تلقاه من الكتب من ثقافة اليونان . وقد جمع هاوپتمن انطباعاته فى كتاب أسماه « الربيع اليونانى » (١٩٠٧) . وفى عام ١٩١٠ أتم رواية « مجنون كريستو امانويل كوينت » التى تظهر تحول الكاتب الى المثالية والصوفية واهتمامه بالثقافة المسيحية واليونانية فى وقت واحد ، مع التمسك بالنقد الاجتماعى الذى يعتبر قاسما مشتركا لكل أعمال هاوپتمن . وفى العام نفسه أتم مسرحية « پيتر براور » ومسرحية «الفيران» التى تبرز عيوب المجتمع البرلينى فى ثوب من الرمزية . وفى العامين التاليين فرغ من رواية « أتلانتيس » التى استخدم فيها ذكرياته عن رحلته الى أمريكا للقاء زوجته الأولى وأولاده .

وفى عام ١٩١٢ ألف تمثيلية احتفالية لمدينة بريسلاو بمناسبة العيد القومى ، وتعرض جرهرت هاوپتمن فيها لحركة التحرير فى ألمانيا (بعد غزو نابليون) فصور انهيار الامبراطورية فى ذلك الوقت وأبرز دور صناع حركة التحرير الحقيقيين وخاصة « فون شتاين » . وقد غضب الامبراطور من هاوپتمن غضبا شديدا لهذا الانتقاض من الامبراطورية ، ولم يشفع لهاوپتمن صدقه وأمانته التاريخية. وسواء غضب الامبراطور أو لم يغضب، فقد نال هاوپتمن تقديرا عالميا رفيعا فى العام نفسه هو جائزة نوبل .

وما لبثت الحرب العالمية الأولى أن اندلعت نيرانها ، وملأت الديار الألمانية وديار الألمان جميعا ، بمزيج من الاضطراب والأمل ، من الألم مما يقع ومن توقع مستقبل أحسن . كانت تلك الأيام قاسية على هاوپتمن بصفة خاصة ، فمع بداية الحرب أصيبت مطلقته وأم أولاده الكبار بأزمة قلبية أودت بحياتها ، ثم جند الجيش فيمن جند من الشباب أولاد هاوپتمن جميعا . وقد ظهر حزن هاوپتمن الخاص والعام فى المؤلفات التى عكف عليها فى سنوات الحرب ، ومنها مسرحية « ماجنوس جاربه » ومسرحية « أغنية الشتاء » و « المنقذ الأبيض » (على التوالى ١٩١٥ — ١٩١٦ — ١٩١٧) والمسرحية الأخيرة تصورة استيلاء الأسبان على المكسيك وارتكابهم الفظائع، فى وقت كان أهل المكسيك يعتقدون فيه أن ثمة رجل أبيض سيأتى لانقاذهم .

وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى وقامت فى ألمانيا الجمهورية المعروفة باسم « الجمهورية الفايمارية » برزت بين أفكار العهد الجديد أفكار هاوپتمن عن الديموقراطية وعن عيوب

المجتمع ، وعن الحياة الانسانية المرجوة ، ومازالت أسهم الأديب فى الارتفاع حتى سرت فى عام ١٩٢١ اشاعة قوية بأنه سيرشح نفسه رئيسا للجمهورية ، واضطر هو الى تكذيبها علنيا . وما كان هاوپتمن يريد ميدانا غير ميدانه ، وما كان يريد من سلاح غير سلاحه : الكلمة التى تدوى على المسرح أو تنبض بالقوة على صفحات الكتب أو ترن فى آذان الناس فى قاعات المحاضرات . على أن المسرح كان يستحوذ على اهتمام هاوپتمن جله ، وكان هاوبتمن يعتقد أن المسرح هو الدعامة الأساسية للثقافة وللتقدم الانسانى . ولم يكن هاوپتمن يكتفى بالكتابة للمسرح ، بل كان خاصة أيام الشباب يمثل ، وكان يمارس الاخراج المسرحى ، ويحفظ له تاريخ الاخراج المسرحى فى ألمانيا اخراجه مسرحية « ڤيلهلم تل » للشيللر و« الجرة المحطمة » لهاينريش فون كلايست وهاملت لشيكسپير .

وفى عام ١٩٢٢ بلغ هاوپتمن الستين فاحتفلت المدن الألمانية الهامة احتفالات لم تعرفها ألمانيا من قبل ، ولم تتكرر بعد ذلك الى اليوم مع أديب آخر . وكانت الاحتفالات تشمل ألوانا من التكريم بالخطب والنياشين ، وتشمل خاصة تمثيل مسرحياته . — فى السنوات التالية أنشأ هاوپتمن مسرحيات منها « دوروتيا أنجرمن » ١٩٢٥ التى يدافع فيها عن الأخلاق والانسانية و « تيل أويلنشپيجل » ١٩٢٧ التى تصور مخاوف هاوپتمن من تزايد أسباب التدهور وعوامله فى حياة الناس . وفى عام ١٩٢٧ اختير هاوپتمن عضوا فى الأكاديمية البروسية للأدباء .

كانت حياة هاوپتمن فى هذا الوقت لا تتصل فى مكان واحد . كان من ناحية كثير الترحال ، وما أكثر ما زار هولندا والسويد . وكان من ناحية أخرى كلفا بقضاء الصيف بين انجنيتندورف وجزر بحر البلطيق ، وقضاء الشتاء على الريڤييرا الايطالية . حتى جاء عام ١٩٢٩ فاتخذ بيتا على الجزيرة الحبيبة الى نفسه ، جزيرة « هيدينزيه » فى بحر البلطيق ولزمه زمنا يكثير من الانتاج فى الفروع المختلفة . كتب مسرحية عن هاملت ، وكتب رواية « كتاب العاطفة » التى يحكى فيها زواجه الأول والثانى ، وهى رواية لا تقل أهمية عن رواية « جزيرة الأم الكبرى » التى نشرها فى عام ١٩٢٤ . وأهم مسرحية كتبها فى هذه الفترة كلها هى مسرحية « قبل الغروب » ١٩٣١ التى تصور محنة فى أسرة بين أبناء وأبيهم ، يحجز الأبناء على الأب فينتحر . وقد أحدثت هذه المسرحية دويا هائلا فى برلين . وفى عام ١٩٣٢ كان هاوپتمن فى السبعين من عمره ، فأقامت له مدن ألمانية كثيرة احتفالات تكريم . وكان هذا العام يوافق كذلك مرور ١٠٠ سنة على وفاة أديب ألمانيا الأعظم جوته ، فدعت بعض الجامعات الأمريكية هاوپتمن لزيارتها وإلقاء محاضرات فيها ، ونال هاوپتمن فى أمريكا التكريم ، اذ استقبله رئيس الولايات المتحدة فى ذلك الوقت فى البيت الأبيض ، ومنحته جامعة كولومبيا الدكتوراه الفخرية .

وما يلبث هتلر أن يتمكن من الاستيلاء على زمام الأمور فى ألمانيا ويحول ألمانيا الى دولة فاشية طبقا « للديمقراطية الاشتراكية للعمال » أو ما سمى بالنازية ، وكان هذا التطور النازى خاصة فى أول أمره تطورا يوحى بالأمل ، حتى تبين للناس انه يمتلىء بطاقات تخريبية هائلة . وقد ضاق كثير من أهل الفكر بالنازية وبأصحابها

وتركوا البلاد وهاجروا ، وكان من أهل الفكر من آثروا البقاء فى ألمانيا ومحاولة بث شيء من أفكار الحرية وقيم الانسانية الخالدة ، هاتان طائفتان وجدت الى جانبهما طائفة كبيرة تمشت مع النظام الجديد وساندته بما أنشأت من أدب وكتابة . وكان جرهرت هاوپتمن مع الذين بقوا فى ألمانيا النازية . والبعض يعيبون عليه أنه كان يلقى الأحاديث من اذاعة هتلر ، وأنه كان يشترك فى اجتماعات للشباب الهتلرى مثلا . ولايمكن القول الآن قطعا بأن هاوپتمن أصاب أو أخطأ . ولكن من الممكن أن تتبين انه كان يحس بالاضطراب فى داخل نفسه ويسعى الى شيء من وضوح الرؤيا بعد أن تجاوز السبعين عاما . فى عام ١٩٣٣ كتب مسرحية « السنطور الذهبى » وفى العام التالى « اعجوبة البحر » فيهما شيء من التفاؤل والاستغراب ، ثم ما لبثت النغمة أن اكتأبت فى « دوامة الرسالة » وهى رواية أتمها عام ١٩٣٥ وصور فيها أزمة أحد المتأدبين أصحاب الفكر وصور فيها العديد من المشكلات الاجتماعية والثقافية . وقد شهد العام نفسه اكتمال كتابه « مغامرة شبابى » يحكى فيه شيئا من قصةحياته. ويبدو أن هاوپتمن بدأ فى هذا الوقت يهرب الى أيام صباه من ناحية والى الأحلام من ناحية ثانية والى عالم اليونان العظيم من ناحية ثالثة فقد تلبدت الغيوم حوله ، وبدأت انفجارات الحرب العالمية الثانية تدوى وتصم الأسماع . أما هربه الى صباه فحديثه فى « مغامرة شبابى » وأماأدب الأحلام والأساطير فيمثله « الحلم الكبير » عام ١٩٤٢ وهو ديوان يدور حول مصير الانسانية وتضطرب قصائده بين الغموض والوضوحوتسعى بين هذا وذاك الى التنبؤ بالمستقبل فيما يشبه العرافة . وأما رحلته الى أدب اليونان وثقافة اليونان فتتمثل فى الرباعية : افيجينيا فى دلفى ١٩٤٠ و «افيجينيا فى أوليس» ١٩٤٣ و « موت أجاممنون » ١٩٤٤ و « الكترا » ١٩٤٤ . وكان هاوپتمن فى أخريات أيامه مشغولا ما استطاع بكتابة الشعر وبرواية لم يتمها عن يوهان يؤاخيم ڤنكلمن ، الذى صنع علم الآثار الحديث وقاد أوروبا الحديثة الى الثقافة القديمة .

وفى أوائل عام ١٩٤٥ انتقل الأديب الهرم وزوجته من ڤيزنشتاين الى دريسدن للعلاج. وكان أن عاش الليلة الرهيبة ، ليلة ١٣ فبراير ١٩٤٥ التى تعرضت فيها المدينة وأهلها لغارات جوية خطيرة أهلكت الحرث والنسل . فعاد هاوپتمن من حيث أتى . وانتهت الحرب بالاحتلال الروسى للمنطقة الشرقية من ألمانيا ، وفى ابريل ١٩٤٦ فكر هاوپتمن فى أن ينتقل الى برلين ، ولكن المرض أقعده عن السفر الى أن مات فى السادس من يونية عام ١٩٤٦ فى انجنيتندورف ودفن فى قبر خاص فى جزيرة هيدينزيه .

أعماله :

رأينا ونحن نستعرض حياة جرهرت هاوبتمن انه كان شعلة من النشاط لم تنطفىء الا بوفاته ، ورأينا أن هذا النشاط شمل اتجاهات فنية مختلفة أبرزها اتجاه الطبيعية وتناول من الأنواع الأدبية النوع المسرحى والنوع القصصى الملحمى والنوع الغنائى . أهم مؤلفاته :

أولا ــ المؤلفات المسرحية :

قبل الشروق ــ عيد السلام ــ بشر فى عزلة ــ النساجون ــ الزميل كرامبتون ــ فراء الحرداء

— فلوريان جاير — الحوزى هينشل — شلوك وياو — ميشائل كرامر — روزه بيرنت — عذارى بيشوفسبرج — جريزلدا — الفيران — فرار جابرييل شيللينج — رحلة هانيللة الى السماء — الناقوس الغارق — ايلجا — هاينريش المسكين — وبيبا ترقص — رهينة القيصر كارل — قوس أوديسيوس — المنقذ الأبيض — اينديبودى — دوروتيا أنجرمن — قبل الغروب — هاملت فى ڤيتمبرج — افيجينيا فى دلفى — افيجينيا فى أوليس — موت أجا ممنون — اليكترا .

ثانيا — المؤلفات القصصية والملحمية :

حارس قضبان السكك الحديدية تيل — هرطيق سوانا — مجنون كريستو امانويل كوينت — أتلانتيس — ربيع اليونان — كتاب العاطفة — دوامة الرسالة — مغامرة شبابى — أنه — جزيرة الأم الكبرى — تيل أويلينشبيجل — فاندا — الفأس المدببة — طلقة فى الحديقة — مينيون .

ثالثا — المؤلفات الغنائية :

الكتاب المزركش — الحلم الكبير — قصائد جديدة .

ومن مؤلفات هاوپتمن أيضا خطب ومحاضرات نشر بعضها فى عام ١٩٣٢ بعنوان « أمة وفكر »، ومؤلفات كثيرة غير كاملة ، ورسائل مازلنا نجهل عنها الكثير ، فلم تظهر المؤلفات الكاملة لجرهرت هاوپتمن الى يومنا هذا ، وهناك جماعة من العلماء تنهض حاليا بهذه المهمة .

هاوپتمن والطبيعية :

ليس جرهرت هاوپتمن هو الذى أتى بالطبيعية الى ألمانيا ، وليس هو رائدها ، ولكنه أعظم ممثل لها بدون أدنى شك ، وتلك مرتبة لم ينلها بمؤلفات نظرية ، بل نالها بأعماله الأدبية الرائعة . وما من شك فى أن فهم مسرحية « النساجون » التى تتناولها بالدرس فى هذه الصفحات لا يكتمل الا اذا استعرضنا جوانب هذا المذهب الذى سمى فى الأدب الألمانى تارة بالطبيعية وتارة بالعصرية وتارة ثالثة بالثورية أو على التوالى : الأدب الطبيعى — الأدب العصرى — الأدب الثورى . ويمكن القول بأن بداية هذا الاتجاه هى عام ١٨٨٢ ، هذا العام الذى ظهرت فيه « صولات وجولات نقدية » بقلم الأخوين هارت ، كذلك يمكن القول بأن الطبيعية ازدهرت فى السنوات الأخيرة من عصر بسمارك والسنوات الحاسمة من عصر القيصر ڤيلهلم الثانى (الامبراطور غليوم الثانى) وهى السنوات التى شهدت اتجاه السياسة والاقتصاد فى ألمانيا الى « الاستعمارية » ، وبالتالى الى الحرب العالمية الأولى . وقد شهدت هذه الفترة نتيجة للتنافس بين الدول الاستعمارية ازدياد قوة أصحاب رؤوس المال فى ألمانيا نتيجة للحماية الجمركية وازدياد الاحتكار واستغلال أصحاب العمل للعمال الكادحين ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اتساع نطاق الصناعة تدريجيا وما استتبعه ذلك من تغيرات اجتماعية . وقد حاولت حكومة بسمارك مواجهة هذه المشكلة الكبرى ، التى عرفت فى ذلك العصر باسم «المسألة الاجتماعية»، وحاولت اصدار « القانون الاشتراكى » فى عام ١٨٩٠ ، ولكن القانون لم يصدر تحت ضغط الحركة العمالية . ولا ينبغى أن ننسى أن العمال فى ألمانيا تأثروا العمال فى انجلترا وكونوا نقابات وكونوا حزبا هو « حزب العمال الاشتراكى الديموقراطى » ، وكان مؤسسا هذا الحزب (عام ١٨٦٩) هما ڤيلهلم ليبكنشت وأوجست بيبل

من تلاميذ كارل ماركس (ماركس نشر فى عام ١٨٤٨ المانفست الشيوعى الذى طالب فيه باستيلاء العمال الكادحين (البروليتاريا) وحدهم على السلطة فى الدولة ، وتأميم وسائل الانتاج) ـ وهكذا كانت هناك مطالب معينة فى دوائر العمال : أجور أحسن ـ ساعات عمل أقل ـ منع استغلال النساء والأطفال . ومن ناحية أخرى شهدت هذه الفترة اهتماما متزايدا بالعلوم الوضعية وبالنتائج الباهرة التى وصلت اليها ، وفى مقابل ذلك انصرافا متزايدا أيضا عن العلوم غير الوضعية مثل التاريخ والعلوم الفكرية الانسانية . كان شارل داروين بنظريته عن أصل الأنواع وعن بقاء الأصلح قد فتح الباب أمام تيار من التفكير الوضعي يعتقد فى امكانية تحسن الجنس البشرى تحسنا متزايدا . وكان هربرت سبنسر (١٨٢٠ ـ ١٩٠٣) قد نشر مذهبا أخلاقيا شديد الارتباط بعلوم الحياة يحدد الخير والشر على أساس النفع والفائدة ، فما أفاد الانسان فى البقاء حيا هو الخير وما أضر الانسان فى هذا المضمار فهو الشر . وكان الفيلسوف الانجليزى جون ستوارت ميل (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣) قد عبر عن أفكار مشابهة ولكن على نطاق المجتمع فكان يرى أن قيمة التصرفات الانسانية رهن بالنتائج التى تؤدى اليها بالنسبة للمجتمع وكانت كل هذه الأفكار تدور فى اطار من رفض المتعاليات (الترانسندنتس) ومن الاعتماد على الخبرة كأساس للمعرفة ، وكان لفلسفة أوجست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) أثر كبير على توجيه الثقافة الاوروبية كلها الى هذا الاتجاه . حتى الانسان وسلوكه أصبح فى نظر الأفكار الجديدة . يخضع لقوانين العلوم الأخرى مثل قانون العلة والمعلول . وأصبحت التصرفات النفسية تقيم على أنها مجرد وظيفة للكيان العضوى الجسمانى . وكانت فرنسا هى التى قادت عملية التقريب بين العلوم الطبيعية وبين الأدب بفنونه وعلومه . فقام هيبوليت تن (١٨٢٨ ـ ١٨٩٣) فى كتابه « فلسفة الفن » ابتداء من عام ١٨٦٥ بالدعوة الى جعل الأحكام النقدية على الأعمال الفنية مرتبطة بعوامل المكان والزمان والجنس . ونقلت هذه الفلسفة الى الأدب : الوضيعة ـ الحتمية العلمية التى تنتفى معها حرية الارادة ـ التأكيد على الحواس والغرائز ـ التقييم على أساس الفائدة والنفع . ـ وتتابع الأدباء الفرنسيون فى محاولات تجسيم هذه الاتجاهات فى أعمال أدبية ، فكانت محاولات جى دى موبسان التى تصور الانسان ككائن تحركه غرائز ودوافع معينة ، وكانت محاولات الأخوين ادمون وجول جونكور فى رسم صورة دقيقة للحياة تبرز فيها المشكلات الاجتماعية الى الصدارة ، ورواية « جرمينى لاسيرتو » ١٨٦٥ مثل واضح على هذا (قصة خادمة) . كل هذه المحاولات مهدت للدفعة القوية التى تتمثل فى كتاب اميل زولا (١٨٤٠ ـ ١٩٠٢) : « الرواية التجريبية » عام ١٨٨٠ الذى رسم حدود المذهب الطبيعى بحسناته وسيئاته والذى مجد جهود السابقين ابتداء من ديديرو الى بلزاك الى فلوبير الى الأخوين جونكور فى تحويل الفن الى الخط العصرى الصحيح : فما الفن الا قطعة من الطبيعة يتطلع اليها متطلع من خلال مزاج. وواجب الأديب الخلاق أن يكشف الارتباطات والعلاقات على أساس قانون العلة والنتيجة . ثم صنع زولا فى ٢٠ رواية تكون فى مجموعها رواية واحدة هى « آل روجون ماكار » (١٨٧١ ـ ١٨٩٣) مثلا على تنفيذ النظرية الطبيعية : كان اميل زولا يجمع المعلومات أو «المستندات

الانسانية » بملاحظة علمية دقيقة للناس ، أو « للآلة البشرية وهى تعمل » ، ويحاول تفسير الانسان وسلوكه على أساس نظرية الوراثة ونظرية تأثير البيئة ، ويعلن فى أكثر من موضع من كتاباته النظرية (منها الى جانب « الرواية التجريبية » : « أدباء الطبيعية » و « الطبيعية فى المسرح ») أن التفكير هو وظيفة للمادة . وهكذا صور فى روايته أو رواياته أسرة تتبعها فى ظروف مختلفة ، وأزمنه مختلفة وبيئات مختلفة (خمسة أجيال) .

كذلك قدم الأدباء الروس والأدباء الاسكندناقيون أمثلة أخرى قوية على الطبيعية فى الأدب ، عرفت طريقها الى الأدب الألمانى . من الأدباء الروس نذكر تورجنييف (١٨١٨–١٨٨٣) وليوتولستوى (١٨٢٨ — ١٩١٠) وفيدور دوستويفسكى (١٨٢١ — ١٨٨١) وما أخرجو للناس من روايات تدور حول المجتمع وما يدور فيه من مصائب وحول العاملين الكادحين ومايقعون فيه من محن . واذا لم يكن هذا الأدب الروسى من النوع الطبيعى حسب التعريف المحدد الضيق للمذهب ، فانه على أية حال يعالج عددا كبيرا من العناصر التى تركز عليها اهتمام الطبيعيون ، وقدم أكثر من نموذج لنوع الاستطيقا الجديد الذى بدأ ينافس استطيقا الجمال ، ونعنى به استطيقا القبح وما تشتمل عليه من قيم واطئة . أما الأدباء الاسكندنياف فقد آثروا على نشوء وارتقاء الاتجاه الطبيعى فى ألمانيا . منهم مثلا جيورج براندس (١٨٤٢ — ١٩٢٧) المؤرخ الدنماركى الذى دعا للاهتمام بأدب النقد الاجتماعى ، وكان له فضل التعريف به . فعرفت ألمانيا أسماء وأعمال كيلاند (١٨٤٩ — ١٩٠٦) ويوناس لى (١٨٣٣ — ١٩٠٨) وهانس ييجر (١٨٥٤ — ١٩١٠) وكريستيان كروخ (١٨٥٢ — ١٩٢٥) وأرنه جاربورج (١٨٥١ — ١٩٢٤) وينس بيتريا كبسون (١٨٤٧ — ١٨٨٥) . وياكبسون هو الذى رسم فى روايته « نيلس ليهنه » (عام ١٨٨٠ ، نفس العام الذى أخرج فيه زولا «الرواية التجريبية») شخصيات تحددها عوامل البيئة والوراثة . وينبغى أن نذكر كذلك أعمال أوجست ستريندبرج (١٨٤٩ — ١٩١٢) وأعمال هنريك أبسن (١٨٢٨ — ١٩٠٦) التى — خاصة أعمال ابسن — عرت المجتمع من الأقنعة الكاذبة التى يستتر خلفها العيوب وخمائر الفساد والتحلل . كانت هذه « المؤلفات الاجتماعية » تهتم بالتفسير العلمى السيكولوجى وتتعرض لأمور مثل تحرر المرأة والوراثة والزيف الخلقى فى الطبقة البورجوازية، ولا تضع حلولا بل تترك المشكلات كما هى مصورة بدقة علمية أمام الناس ، حسب التكنيك الطبيعى المعروف .

كل هذه المؤثرات الخارجية أتت الى المانيا ، وكانت ألمانيا قد خطت فى هذا الاتجاه الطبيعى الجديد بضع خطوات . كانت ألمانيا قد عرفت شيئا من الطبيعية فى أعمال جيورج بوشنر (١٨١٣ — ١٨٣٧) التى واراها النسيان ، وأعمال هيبل (١٨١٣ — ١٨٦٣) وأعمال فونتانه (١٨١٩ — ١٨٩٨) ؛ وكانت فائدة هذه الأعمال غير قليلة بالنسبة للداعين للمذهب الطبيعى فى ألمانيا ، اذ أنها كانت بمثابة دعامة يستندون اليها ، ويبررون بها مطلبهم . وقد بدأت الدعوة فى « صولات وجولات نقدية » عام ١٨٨٥ بقلم الأخوين هارت وهى مقالات نشرتها مجلة « المجتمع » التى كان يحررها ج. كونراد ، وبدأت الدعوة بالهجوم على

الأدب القديم والمطالبة بأدب عصرى . وفى العام التالى انطلق صوت آخر هو صوت كارل بلايتروى فى « ثورة الأدب الغنائى » ، وفى عام ١٨٨٧ أخرج بولشة « الأسس الطبيعية للشعر » . وتوالت الأعمال النظرية ومن أهمها « الفن ، كنهه وقوانينه » تأليف ارنو هولتس (١٨٩١) . كانت خلاصة الدعوى الجديدة ، من ناحية رفض الأدب الكلاسيكى ، ورفض الأدب الرومانتيكى ، والتمسك بنوع واحد هو الأدب العصرى « فعالمنا علم عصرى ليس الا » (كما كتب ارنو هولتس) . هذه العصرية كانت مساوية للطبيعية تماما ، وكان على الأدب أن يصور بدقة هذه الطبيعية . واستعار ارنو هولتس عبارة زولا : « الفن هو ركن من الطبيعة ننظر اليه من خلال مزاج » صنع معادلة الفن شكذا : (الفن=طبيعة — س) ، ويرى ارنو هولتس أن الفن ينبغى أن يقدم أعماله فى أسلوب الريبورتاج . الانسان هو نتاج الوراثة والبيئة ، والانسان الذى تسعى الطبيعية الى تصويره هو الانسان الوسط ، الانسان الذى يمثل مجموعة معينة ، وربما تسعى الطبيعية الى تصوير المجموعة المتجانسة كلها ، اذا كانت واقعة تحت نفس المؤثرات . « البطل » الذى كانت المدرسة الكلاسيكية تحفل به انتهى عهده ، وحل محله الانسان السلبى أو كما كانوا يقولون فى بداية عصر الطبيعية على سبيل التهكم « البطل السلبى » فى مواجهة الحتمية العلمية التى تلغى حرية الارادة . المشاعر والأحاسيس قيدت فى قيود الغرائز والدوافع ، وأصبح الحب والغريزة الجنسية شىء واحد ، وأدى الاهتمام بالحقيقة العلمية الى الاهتمام بالنواحى المرضية والقبيحة والدنيئة . وهكذا تأكدت استطيقا القبح ومقاييسها . ظهرت شخصيات المرضى والمعتوهين والسكارى والمجانين والبغايا ، وظهرت البيئات المظلمة والبائسة التى تعيش على حافة المجتمع أو خارج حدود المجتمع السوى . بل كان النقاد الطبيعيون يلومون الأدباء أحيانا على تصويرهم عناصر جميلة ، وقد رد هاوبتمن مرة على نقد من هذا النوع فقال : « وماذا أصنع ، اذا كانت الطبيعة تحتوى أيضا على أشياء جميلة ؟ » . وكان تصوير الطبيعة يتطلب دقة متناهية ، ويحبذ امتناع الأديب عن التفسير ، فاذا أراد التفسير فهناك طريق واحد هو اتباع قانون العلة والنتيجة فى حدود البيئة والوراثة والجنس . على الأديب أن يتبع المنهج العلمى فى الملاحظة والتدوين ، وأن ينكر الحدس والالهام والعبقرية . ومادامت العملية عملية منهج وجمع معلومات فمن الممكن أن يشترك أكثر من مؤلف فى تصنيف عمل واحد ، وقد حدث هذا بالفعل واشترك هولتس وشلاف فى التأليف . على الأديب أن يدقق فى وسائله الفنية وأن يستعمل لغة الحياة ، اللغة الدارجة التى يتكلمها الناس وألا يتردد فى رصد هذه اللغة كما هى بما فيها من أخطاء نحوية ، وعليه أن يرصد الى جانب اللغة الحركات والتلويحات ، وأن يعلم أن الحركة أهم من الكلمة لأن الحياة تتكلم بحركات . الأديب ينشط بين الكلمة والحركة ، لا بين الفكرة والكلمة . كذلك تعرضت الطبيعية لمسألة هامة هى مسألة العلاقة بين الفن والمجتمع وكان من رأى الطبيعية أن يتقدم الأديب الركب وأن يخدم الجهود الصانعة لمستقبل أفضل من توعية وتربية. ويفسر أوتوبرام هذا المطلب بقوله ان الطبيعية

لا تعنى الواقع بالمعنى الموضوعى بل بالمعنى الذاتى .

وأول ميدان شهد التطبيق الطبيعى هو ميدان الرواية ، وبدأ مترددا يختار موضوعات «طبيعية» ويعالجها بالطرق « التقليدية » ، الى أن حقق الأديبان هولتس وشلاف فى رواية «بابا هاملت» عام ١٨٨٩ الطبيعية فى المادة والطريقة معا . ثم تبع ميدان الرواية ميدان المسرحية ، فحقق الأديبان هولتس وشلاف فى مسرحية «أسرة زيليكه» عام ١٨٩٠ متطلبات المذهب الطبيعى وكانا فيهما متأثرين أشد التأثر بطريقة ابسن الاهتمام برسم شخصيات أكثر من الاهتمام بالحدث ، تقليل عدد الشخصيات، اللجوء الى تكنيك التحليل ، الكشف عن جرم غامض بطريقة تتسم بالحذر ، انزال كارثة لا راد لها . كذلك شملت الطبيعية النوع الغنائى وكانت مطالب الطبيعية تتلخص فى استبعاد الصوفية والتهويل العاطفى والسعى نحو الجمال دون غيره من القيم الاستطيقية الأخرى ، استبعاد هذه الأشياء لحساب أشياء أخرى عصرية مثل الصناعة والحياة التى تضطرب فى المدينة . ومن الناحية الشكلية كان المطلوب هو تحقيق انسجام بين الشكل والمضمون عن طريق ابراز الايقاع الذاتى للمضمون المنطلق الى تعبير . بعبارة أخرى كان أصحاب النظرية الطبيعبة فى الغنائية وخاصة ارنو هولتس يرفض السعى وراء موسيقى الكلمات كما لو كانت هذه الموسيقى التى للكلمات غرض فى حد ذاتها ، كانوا لا يعترفون الا بوزن واحد هو الوزن القائم على ايقاعات الكلمات التى تحتمها الضرورة التعبيرية . وهكذا رفضت الطبيعية الأوزان التقليدية والقوافى والتقسيمات الى مقاطع (ستروف) ، وحبذت الاقتراب من النثر .

كانت الطبيعية فى ألمانيا لها تجمعات ولها محلات. كانت هناك مجموعة فى ميونيخ يتزعمها منذ عام ١٨٨٢ ميشائل جيورج كونراد الذى بدأ منذ عام ١٨٨٥ يخرج مجلة « المجتمع » التى اشترك معه فيها فيما بعد كارل بلايتروى صاحب كتاب «ثورة الأدب» (١٨٨٥) . ثم كانت هناك مجموعة ثانية فى برلين بدأت حوالى عام ١٨٨٣ بزعامة الأخوين هارت اللذين ألفا « صولات وجولات نقدية » (١٨٨٢) ومهدا للأفكار الجديدة . وكانت الجماعة تضم عددا (حوالى ٢٠) من الشباب غالبا من الطلبة منهم : ارنو هولتس وجرهرت هاوپتمن . وكانت هناك مجموعة ثالثة فى برلين تسمى نفسها « الى الصميم » (منذ عام ١٨٨٦) وكان فيها كونراد كوستر وأويجين ڤولف ، وكان لها مجلة هى « المجلة الأكاديمية » . ـ وقد ساعد على تدعيم الطبيعية فى المسرح انشاء «المسرح الحر» على غرار المسرح الحر فى باريس فى عام ١٨٨٩ ، وكان لهذا المسرح جمعية ومجلة . وقد أخرج أوتو برام على هذا المسرح مسرحية الأشباح لأبسن ثم مسرحية « قبل الشروق » لهاوپتمن التى لقيت نجاحا حاسما . ـ كذلك تكونت فى برلين فى عام ١٨٩٠ «جماعة الأدباء الفريدريشهاجنيين» وكانت تضم بولشه وڤيلله وغيرهما من الأدباء والمفكرين اللامعين .

ويمكن القول بأن المدرسة الطبيعية كانت مسيطرة على الحياة الأدبية ، أو كانت تحتل فيها مكان الصدارة فى الفترة بين ١٨٨٠ و ١٩٠٠ ، ثم بدأت حركات أدبية أخرى تتولد منها اما عن طريق المعارضة أو عن طريق تنمية عناصر بعينها . وأهم أدباء المسرح

الطبيعيين الى جانب هاوپتمن ، الزميلان أرنو هولتس ويوهانس شلاف وماكس هالبه وزودرمن. وأهم أدباء القصة والرواية الى جانب هاوبتمن والزميلين هولتس وشلاف : ميشائل جيورج كونراد ، وزودرمن وليلينكرون .

النساجون :

تدور أحداث هذه المسرحية التى تعتبر أهم مسرحيات جرهرت هاوبتمن وأهم المسرحيات الطبيعية وأهم مسرحياته الاشتراكية حول مشكلة أمة ، حول ثورة حقيقية قام بها عمال النسيج على الظلم الذى حل بهم :

أشخاص المسرحية

درايسيجر : صاحب مصنع نسيج
زوجة درايسيجر

پفايفر : موظف الشحن والتخليص
نويمن : صراف
صبى
الحوزى يوهان
فتاة
عند درايسيجر

ڤاينهولد : مدرس خاص لأبناء درايسيجر
القس كيتلهاوس
هايده : مأمور الشرطة
كوتشة : شرطى
ڤيلتسل : صاحب مطعم
زوجة ڤيلتسل
أنه ڤيلتسل
فيجاند : نجار
مسافر
فلاح
عامل من عمال الغابات
شميت ، جراح
هورنيش : لمام خرق بالية
العجوز ڤيتيش : معلم حداد
النساجون :

- بيكر
- موريتس ييجر
- العجوز باومرت
- الأم باومرت
- برته باومرت
- ايمه باومرت
- فريتس : ابن ايمه ، عمره أربع سنوات
- أوجوست باومرت
- العجوز أنزورجه
- السيدة هاينريش
- العجوز هيلزه
- السيدة هيلزه
- جوتليب هيلزه
- لويزه : زوجة جوتليب
- ميلشن : ابنه جوتليب ، عمره ست سنوات
- رايمن
- هايير
- غلام : عمره ثمانية أعوام

عمال صباغة
ومجموعة كبيرة من النساجين من الرجال والنساء بين شباب ومسنين .

◆ ◆ ◆

تبدأ المسرحية بمشهد فى قاعة كبيرة فى وكالة درايسيجر ، هى القاعة التى ياتى النساجون ليسلموا انتاجهم من المنسوجات فيها ، فيستقبلهم الموظف بفايفر ويفحص المنسوجات بدقة متعنتة مستعينا بعدسة مكبرة وأدوات قياس هندسية وميزان ثم يبلغ الصراف نويمن الثمن الذى يستحقه النساج . والنساجون الذين يظهرون على المسرح فى حالة يرثى لها يبدو عليهم الجوع والمرض والشيخوخة ، ويجسمون البؤس والعوز فى أشد صورة . ويحاول النساجون المطالبة بزيادة الأجر أو التماس سلفة مقدما ، فيغلظ لهم بفايفر أشد الغلظة مع أنه هو نفسه كان فى سابق الزمن نساجا مثلهم ثم استعمله درايسيجر على اخوانه وبنى حرفته ، فأخلص له وأصبح يبخس الناس أشياءها ويتصيد العيوب فى المنسوجات ويتعلل بمختلف العلل ليقلل من المستحقات وليأتى لسيده بالكسب الاستغلالى . ويلخص النساج بيكر الوضع بقوله : « ليس هذا بأجر ، بل هو صدقة خسيسة .. أو بقشيش دنىء .. » ويحتدم النقاش بين بيكر وبين بفايفر ، بيكر يطالب بزيادة الأجر ، وبمعاملة أحسن ، وبفايفر يرفض ويرفض ثم ينادى سيده درايسيجر فيأتى فاذا هو رجل بدين يوشك أن يلهث من ربوبه . ويستعمل درايسيجر لغة العنف، والتهديد بالعنف، مع النساجين ومع بيكر ، ويستنكر ما فعله بعض النساجين فى الليلة السابقة اذ مروا بشباكه وغنوا نشيد : « محكمة الدم .. » ، وهو نشيد المقاومة الذى يتسلى به النساجون ، ويبلغهم أنه سيلجأ الى النيابة اذا تكرر الحادث . ويعاند بيكر ويرد للسيد درايسيجر الصاع صاعين ، فيأمر هذا بعدم قبول منسوجات منه ــ وكان النساجون ينسجون فى بيوتهم ويأتون بالنسيج الجاهز الى درايسيجر. ولكن بيكر لا يعبأ فالموت جوعا على النول كالموت جوعا فى الشارع . وفى هذه الأثناء يسقط صبى من النساجين على الأرض كالميت من فرط الاعياء ويقول النساجون أنه واحد من تسعة أولاد وانه يتعلم الموسيقى ويعمل فى النسيج فى وقت واحد ، وان أحوال أهله فى غاية السوء ، ويطلب له درايسيجر شيئا من الماء ثم شيئا من الكونياك حتى يفيق ، ولكن أحد النساجين يقول أن أفضل وسيلة لافاقته هى اعطاؤه شيئا من طعام . وبالفعل يتكلم الصبى مطالبا بطعام ، فيقول درايسيجر شاحبا : « اننا لا نفهمه » ويحمل الصبى الى الداخل ، ويتكلم النساجون فى أمر محنتهم ، وفى الجوع الذى يفترسهم افتراسا ، حتى ان الواحد منهم يضطر الى وضع حجرة فى فمه وتحريكها فيه للتلهى عن الجوع . ويأتى درايسيجر ويتحدث الى النساجين ، فيقول لهم أن الصبى خر مغشيا عليه لأنه أتى بحمل ثقيل سار به مسافة طويلة ، فى ظروف جوية سيئة ، ووصف أهل الصبى بعدم الرحمة ، وقال انه علاجا لمثل هذه الحالة سيمنع أخذ منسوجات من يرسلونها مع صبية . ثم يتحدث معهم فى الوضع عامة فيدفع عن نفسه تهمة الغلظة ويأخذ اعترافهم غصبا بأنه رحيم ، ويبلغهم أنه من قبيل الرحمة ــ قرر اتخاذ خطوة لمكافحة البطالة ، هى قبول مائتين من النساجين الجدد . ثم يتبين للنساجين أنه قرر أن يخفض أجرهم بمقدار الخمس لقاء ذلك . وينتهى الفصل الأول كما ابتدأ بسخط النساجين .

المنظر فى الفصل الثانى يتغير الى كوخ فلاح معدم هو أنزورجه (فى قرية كاشباخ بجبال أويلنجبرجه) هذا الكوخ ضيق جدا ، تزدحم فيه عائلة باومرت منكبة على الغزل والنسج لا فرق

بين البنت الصغيرة والأم العجوز ، بين الأولاد الأسوياء والابن المعتوه ، حتى هذا المعتوه المقعد يغزل . ويدوى فى المكان ضجيج الأنوال والمغازل ، وتهتز جدرانه من حركة هذه المعدات. ويدور الحديث حول الجوع ، ويتضح ان اسرة باومرت لم تأكل اللحم منذ عامين ، وأن العجوز باومرت ذبح كلبا وسلخه ووضعه فى اناء ليطهوه ويأكله . كذلك يدور حديث بين الأم باومرت والأم هاينريش عن الأولاد وعن الجوع الأليم الذى يتعرضون له ، وتحكى كل واحدة عن زوجها الذى اشتد به المرض وأصبح الاغماء يعاوده ويحول بينه وبين العمل . ويأتى لها الجندى الاحتياطى موريتس بيجر ويتحدث عن حياة الجنود الرائعة فى المدينة وما يتناولون من الخيرات والأموال ، ويستمع له النساجون مبهورين . ويلخص بيجر الوضع قائلا : « ان الكلاب فى المدينة يحيون حياة أفضل من حياتكم هذه » . وعندما يقترح أنزورجه السفر الى برلين والشكوى الى الملك ، ينبههم بيجر الى أن الصحف قد كتبت عن سوء حال الفقراء ، ولكن الأغنياء بما لهم من نفوذ يقلبون الموضوع فيظهر الحق كأنه الباطل . ويبدأ العجوز باومرت فى التهام لحم الكلب وهو يبكى ويتذكر آخر مرة أكل فيها شيئا من لحم الخنزير ، منذ أكثر من عامين . ويتحدث بيجر عن العنف والشجاعة لمناهضة درايسيجر . ويقوم العجوز باومرت فيختفى لحظة ثم يعود وهو يأسف على لحم الكلب الذى أكله ، فقد انقلبت معدته وتقيأه . ويعود الحديث عن البؤس ، ويشحذ بيجر هممهم ، ويصممون على تغيير ما بهم ، ويغنى بيجر « نشيد النساجين » ، الذى يصور البؤس ويجعل من درايسيجر ورجاله جلادين ومن الناس جميعا فى القرية ضحايا تعذيبه .

الفصل الثالث مكانه حانة بسيطة فى (پيترسڤاند) أو صاحبها شولتس ڤيلتسل ، رجل طيب فى الخمسين من عمره ، يقوم على خدمة الزبائن ، بينما تشتغل زوجته بشيء من الأعمال المنزلية وتكوى عند المدفأة ، وله ابنة هى أنه فى السابعة عشر ، جميلة ، نظيفة الملبس أنيقة ، تجلس الى مائدة وتشتغل بشيء من التطريز . وبالحانة من الزبائن النجار فيجاند ، ومسافر يستريح فى المكان حتى يتابع رحلته ، وهو رجل ميسور الحال يتميز بالمرح والجرأة فى وقت واحد. ويدور الحديث بين النجار وڤيلتسل عن الاضطرابات التى انتشرت بين عمال المنطقة ، وعن موت النساج فابيش الذى كان فى حياته بائسا ، و لما مات سار أهل القرية كلهم خلف نعشه كما لو كان امبراطور الصين هو الذى مات . ويدور حديث بين المسافر وبين أنه يحاول فيه أن يغازلها مغازلة سخيفة ثم ينتقل الحديث بين الحاضرين جميعا الى موضوع ثورة العمال الكادحين على أصحاب المصانع أو أصحاب الأرض وكيف أن الحكومة بدأت تحقق فى أسباب الثورة، وأرسلت لجنة لهذا الغرض ، ولكن الثوار لا يعتقدون فى جدوى هذا التحقيق ، ويعتقدون أن التحقيق سينتهى بادعاء ان كل شيء على ما يرام. وفى أثناء الكلام تأتى جماعة من الشباب بزعامة بيجر وبيكر الى الحانة وهى تغنى « نشيد النساجين » . وفى الحانة تستمر فى الغناء ، ويقترح بيكر على النساجين أن يذهبوا الى درايسيجر حتى يسمعوه النشيد الثورى مرة أخرى رغم تهديداته . ويستفذهم الحداد ڤيتيش بقوله انهم يجعجعون

ولا يفعلون شيئا ، ثم يسخر من محاولات العمال المساكين الثورة ، ويذكرهم بأن الثورة الفرنسية أسالت الكثير من الدماء ولم تات برفاهيه لأحد. ولكن بيجر يتعرض له ، ويقف امامه موقف القوة والشجاعه . وفى هذه الأثناء يأتى رجل من رجال الشرطه . وتسود المكان مسحه من الهدوء المفتعل. ويشرب الشرطى الى أن تلعب الخمر برأسه ، ويتبادل الحديث مع الحاضرين وخاصة مع ڤيتيش، وما يلبث الحديث أن يتحول الى العنف ، ويهم ڤيتيش بالانقضاض على الشرطى . فيشحب وجه الشرطى ويقول للحداد انه لا يريد أن يدخل معه فى شجار ، وان المهمة التى كلف بها محصورة فى النساجين ، وعلى النساجين أن يعلموا ان ترديد النشيد الاستفزازى محظور ، وان السجن مصير من يعصى . ولكن النساجين عادوا الى ترديد النشيد ، وقرروا الذهاب الى درايسيجر فى مظاهرة للمطالبة بزيادة الأجور .

الفصل الرابع فى (پيترسڤالداو) ، فى الحجرة الخاصة بداريسيجر بڤيللته الفاخرة هناك زوجة داريسيجر مع زوجة القسيس البروتستانتى كيتيلهاوس ، والمدرس الخاص ڤاينهولد مع القسيس كيتلهاوس . وتدور أحاديث يتبين منها أن المدرس يؤمن بضرورة حل مشكلة الطبقات الكادحة ، ويؤمن بالقيم الانسانية . أما القسيس فيفضل السلامة والاكتفاء بالعظة المنصبة على أمور العبادات ، ولا يريد أن يدس نفسه فى المشاكل . ويأتى درايسيجر وما أن يدخل الحجرة حتى يسمع « نشيد النساجين » ويرى من النافذة النساجين يقتربون ، انها مظاهرة النساجين المساكين المطالبين بحقهم فى شىء من حياة كريمة . ويوضح المدرس ڤاينهولد لدرايسيجر معنى هذه المظاهرة ويؤكد له ان المتظاهرين على حق ، فيغتاظ منه وينهره ويطلب اليه أن يقصر نشاطه على تعليم الأولاد ، وألا يتعرض للقيم الانسانية ، فيترك ڤاينهولد المكان محتجا . ويدخل پفايفر ليبلغ سيده داريسيجر بأن الثوار يريدون اقتحام الڤيللا ، وأنه أبلغ الشرطة ، وأن المأمور قد أتى بنفسه . يدخل المأمور بعد قليل. فيطالبه داريسيجر بأن يتدخل ، ويعد المأمور السيد درايسيجر بأن يكون عند حسن ظنه . ويسلم درايسيجر المأمور النساج بيجر الذى قبض عليه بمعاونة رجاله من عمال الصباغة بصفته المحرض والمتزعم . ويبدأ المأمور استجواب بيجر ، فيرد بيجر بالتهكم ، ويتدخل لقسيس ، فيرجو بيجر أن يتعقل وأن يكون تقيا على نحو ما ينبغى على المسيحيين الصالحين ، ولكن بيجر يرده بغلظة ويقول له انه لم يعد يؤمن بهذا الكلام . ويقرر المأمور أن يقيد بيجر ويأخذه الى مركز الشرطة . وبعد قليل يأتى پفايفر ليبلغ درايسيجر بأن الثوار أطلقوا سراح بيجر وضربوا المأمور ومن معه ضربا مبرحا وان الثوار فى الطريق لدخول الڤيللا . ويخرج القسيس لمحاولة تهدئة الموقف ومعه درايسيجر وما يلبث داريسيجر أن يعود مهرولا فيأخذ أوراقه الهامة من الخزانة ، ويهرب مع زوجته . أما القسيس فيتعرض لمعاملة سيئة من قبل الثوار فلم يكن فى استطاعته أن يتبين حقيقة الموقف، وظن ان فى استطاعته أن يوقف الجموع الجائعة بكلام. ويدخل الثوار الڤيللا بحثا عن درايسيجر وپفايفر، فلا يجدونهما ، فيحطمون كل ما تقع عليه أيديهم .

ـ الفصل الخامس والأخير فى (لانجنبيلاو) ، فى حجرة النساج الهرم هيلزه . فى الحجرة شىء

من متاع وفيها عدة النسج ، وفيها يجلس النساج الهرم وزوجته العجوز العمياء التى توشك كذلك أن تكون صماء ، وابنه جوتليب وزوجة هذا الابن لويزة . النساج الهرم يختلف عن النساجين الآخرين فهو يؤمن بقضاء الله وبعدالته التى تأتى وحدها فى موعدها ، ولهذا فقد أفزعته ثورة النساجين . ويدور بين الشيخ الهرم والأسرة حديث عن التقوى وعن العمل ، الى أن يدخل هورنيش حاملا خبر تقدم الثورة الى هذا المكان ساعية الى نصرة العمال على أصحاب الأعمال وتقدم قوات الحكومة لمناهضة الثوار بالسلاح . أما هيلزه فيعلن استنكاره للتمرد ، وأما لويزة زوجة ابنه فتعلن تحمسها له . ثم يأتى الصغير ميلشن ومعه ملعقة فضية وجدها أمام فيلا درايسيجر بعد نهبها ، ويصمم الجد هيلزه على أن تعاد الملعقة الى أصحابها عن طريق الشرطة . ويأتى الجراح شميت ويحكى تفصيلات الثورة التى شاهدها بعينى رأسه : كأن نهاية الدنيا قد حلت. ثم يأتى جوتليب من الخارج ويحكى أن الثوار أصبحوا عند الباب ، وانه رأى النساج باومرت، صديق هيلزه القديم ، بينهم . ويعلو دق النواقيس ويعلو صياح الثائرين منادين بقية النساجين للخروج والانضمام اليهم . ويدخل بعض الثائرين الى هيلزه ، ومن بينهم بيكر ويتحدثون اليه مبينين أهداف الثورة ولكن هيلزه يكاشفهم برفضه الثورة . كذلك يأتى الشيخ الهرم باومرت وقد لعبت الخمر برأسه ، ويتحدث الى هيلزه عن الطعام الراقى الذى سيناله النساجون اذا تحققت الثورة . وهيلزه يصر على رفض الثورة . والثوار يعلنون انهم جائعون وان مطلبهم الأساسى هو الحصول على ما يسد الرمق . ويحدث صدام بين الثوار وقوات الحكومة المسلحة . ويدوى صوت طلقة ثم طلقات ويسقط الشهداء . ويرى الابن جوتليب زوجته وهى تشترك بجرأة متناهية مع الثوار فى رد قوات الحكومة فيتغلب على التردد الذى صبه أبوه فى قلبه ، ويخرج لمساندة زوجته، رغم استنكار أبيه . وبينما الطلقات تدوى يعود الشيخ الهرم الى النول لينسج فتصيبه طلقة طائشة فى مقتل . ويرى الصغير ميلشن من الشباك كيف تمكن الثوار من رد قوات الحكومة رغم أنهم لا يملكون من سلاح سوى الحجر . ويلتفت الى الداخل فيرى جده قد مات . وينزل الستار ونشيد النساجين يدوى بمصاحبة الموسيقى .

حول مسرحية النساجون :

« النساجون » أقوى مسرحية اجتماعية فى الأدب الألمانى كله بعد مسرحية « فويتسك » لجيورج بوشنر . وتكاد المسرحية تكون من الأدب الموجه ، ولكن مؤلفها كما بينا فى تاريخ حياته لم يكن منضما لأى حزب ، ولكنه فى معالجة المادة لزم جانب الصدق ودقة التصوير ، فعرض على المسرح أحداث وشخصيات الثورة التى قام بها النساجون الشليزيون فى ألمانيا فى عام ١٨٤٤ . وقد أثارت المادة فى وجدانه ما سمعه من أبيه نقلا عن جده عن تلك الثورة ، والمسرحية تبدأ باهداء :

« الى أبى روبرت هاوبتمن »
أهدى هذه الدراما .

اذا كنت يا أبى أهديك هذه المسرحية فانما أفعل ذلك عن الحاح مشاعر أنت تعرفها ولا أجد حاجة الى تفصيلها فى هذا المكان . لقد تحولت رواياتك عن جدنا الذى كان فى شبابه نساجا

مسكينا ، يجلس على النول كما يجلس النساجون الذين صورتهم فى مسرحيتى ، تحولت الى نواة عملى هذا ، الذى يعتبر ــ بغض النظر عما اذا كان قويا قادرا على البقاء أو ضعيفا هش الجوف ــ أحسن ما يمكن أن يقدمه « انسان مسكين كهاملت » .

وقد دفعه التمسك بالمنهج الطبيعى الى جمع المعلومات فى مكان الحادث نفسه ، فذهب بالفعل الى هناك وفحص ومحص وتكلم مع هذا وذاك ، والتمس الشهود العيان فسمع منهم كذلك استعمل ماكتبه فيلهلم ڤولف عن هذه الثورة فى « كتاب المواطن الألمانى» عام ١٨٤٥ . تحت عنوان «بؤس وثورة فى شليزيا » . وڤولف هذا صديق حميم لرائد الشيوعية ماركس وانجلز ، ويكفى أن نشير الى أن ماركس صدر كتابه الهام « رأس المال » باهداء الى ڤيلهلم فولف الصديق الذى لايطويه النسيان والمناضل السباق المخلص الجرىء الكريم الذى يتصدر البروليتاريا . ثم ان ڤولف هذا كان يتمتع بشعبية كبيرة فى شليزيا بدليل انه انتخب فى عام ١٨٤٨ نائبا فى مجلس الأمة كان مقره فى ذلك الوقت فرنكفورت ــ ماين . ــ وربما كان استعمال هاوپتمن لهذا المرجع « الشيوعى » هو الذى أعطى للمسرحية فى بعض مواضعها سمة توشك أن تكون سمة مذهبية .

وكانت الصياغة الأصلية لهذه المسرحية باللهجة العامية الشليزية كما هى ، ثم تناول هاوپتمن هذه الصياغة بشىء من التعديل قربها الى اللغة « الفصحى » ، وعندما عرضت المسرحية على « المسرح الحر » فى برلين فى عام ١٨٩٣ فى عرض خاص حضره مدير الشرطة فى العاصمة كتب هذا المدير تقريرا جاءبه ، ان «شعورا بالحنق والسخط تملكه ، وان مثل هذا الشعور لاشك سيتملك كل انسان شريف يشاهد هذه المسرحية ، وهكذا منعت المسرحية ، ومما يستحق الذكر أن المسرح الحر فى باريس أخذ هذه المسرحية المحظور عرضها فى ألمانيا وعرضها فى فرنسا فلاقت نجاحا كبيرا، وكانت أول مسرحية ألمانية يعرضها مسرح فرنسى منذ الحرب الألمانية الفرنسية عام ١٨٧٠ ــ ولم يكن من المعقول أن يقبل جرهرت هاوبتمن هذا الحظر فرفع الأمر الى القضاء الذى سمح بعرض المسرحية فأخرجها أوتوبرام فى ٢٤ سبتمبر ١٨٩٤ . واعتمدت المحكمة فى حكمها على أن الطبقات التى تتردد على المسرح ليست هى الطبقات التى يخشى القائمون على الأمن من أن تستفزهم المسرحية الى القيام بتمرد على الوضع الاجتماعى القائم .

وبالقدر الذى يمكن به تسمية هذه المسرحية « مسرحية اجتماعية » ، يمكن به كذلك تسميتها مسرحية « تاريخية » أو مسرحية « تسجيلية » أو « وثائقية » ، فهى قطعة من التاريخ المعاصر أتيحت لهاوپتمن فى محيط أسرته ، ثم أكمل جوانبها التاريخية بالقراءة وجوانبها الوثائقية من البيئة ذاتها . وقد أشرنا من قبل الى كتاب ڤيلهلم فولف، وينبغى أن نشير هنا الى كتاب المؤرخ « ألفرد تسيمرمن » ازدهار وتدهور صناعة نسيج التيل فى شليزيا « الذى يعطى صورة علمية دقيقة لثورة نساجى پيترسفالداو ، والذى اقتبس منه هاوپتمن الكثير .

والمسرحية بين هذا وذاك مسرحية طبيعية فى شكلها ومضمونها ، انها تصور مجموعة من الناس تعرضوا لفعل هو الجوع فكان رد الفعل هو اما الثورة عمل تفتح السبيل الى الحياة أو الخضوع للجوع حتى الموت . المسرحية لاتعرض أفكارا للمؤلف ولا

تعرض مشكلة وحلها ، انها تكتفى بتصوير الشخصيات وبنقل حركات هذه الشخصيات وكلامها والشخصيات التى تقوم عليها المسرحيه شخصيات وجدت بالفعل ، درايسيجر مثلا هو الصورة المسرحية لتسفانتسيجر الذى قامت الثورة ضده فى عام ١٨٤٤ ، وكل شخصية تتكلم لغتها : المدرس يتكلم لغة فصحى ، درايسيجر يتكلم لغة بين الفصحى والعامية وتختلف باختلاف المخاطب ، ورجل الدين يتكلم لغته ، والنساجون يتكلمون اللغة الدارجة كما هى ، بما فيها من أخطاء وعيوب . والمناظر مرسومة بدقة ، وكل فصل تتصدره تنبيهات الى المخرج بها كل مواصفات المكان والزمان والملابس والحركات والتعبيرات .

على اننا نلاحظ فى نهاية المسرحية ظهور عنصر الصوفية بشكل ما فى كلام الشيخ هيلزه ، وليس من شك فى أن صوفية هيلزه لم تنفعه فى هذا الوقت المضطرب الذى انطلقت فيه المدافع ،وحلت فيه لغة العنف محل لغة العقل والقلب، ولكن المؤلفات التالية لهاوپتمن تدفعنا الى وضع أيدينا على حديث هيلزه كبداية لخط الصوفية الذى تنتظم فيه مجموعة كبيرة من مؤلفات هاوبتمن التالية، والذى يعتبر عنصرا هاما من عناصر الثقافة الشليزية والتأليف الفنى عند هاوپتمن فى وقت واحد .

نموذج من مسرحية « النساجون » :

(من الفصل الرابع ، المكان : حجرة بفيللا درايسيجر ، الأشخاص : القسيس وزوجته ودرايسيجر وزوجته ، والمدرس ڤاينهولد)

ڤاينهولد : أعتقد أن شيئا ماحدث هناك ، الا اذا كنت قد أسأت الفهم .

درايسيجر (يدخل ، يبدو عليه الغضب والانفعال) : هه يا روزه ، هل أعددت القهوة ؟

السيدة درايسيجر (تتصنع الغضب) : آه ، انك تتركنا دائما وتنصرف عنا .

درايسيجر (دون أن يهتم كثيرا لكلامها) : آه، وما أدراك أنت .

القسيس كيتلهاوس : لامؤخذة . هل حدث ما أغضبك ياسيد درايسيجر ؟

درايسيجر : فى كل يوم من الأيام التى يخلقها الله ياعزيزى السيد القسيس ، يحدث مايغضبنى. ولقد تعودت على هذا . والآن ، ياروزه ؟ لعلك تفعلين شيئا لاحضار القهوة .

السيدة درايسيجر (تذهب الى حبل الجرس العريض المطرز وتشده مرارا وهى غاضبة)

درايسيجر : والآن ــ بعد أن يروح ويجىء فى الحجرة بضعة مرات ــ كنت أتمنى أن تكون حاضرا يا أستاذ ، لو كنت حاضرا لرأيت العجب ، ولكن، تعال ، هيا بنا نلعب الكوتشينة معا ، لنلعب « ويست » .

كيتلهاوس : نعم ، نعم ، نعم ومرة أخرى أقول نعم ، انفض عنك غبار اليوم والق الحمل الذى يثقل كتفيك واندمج معنا .

درايسيجر (يذهب الى النافذة ويدفع الستارة الى جانب وينظر الى الخارج . ثم يقول تلقائيا): ماهذه العصابة ، ــ تعالى ياروز أنظرى . (تأتى زوجته اليه) قولى لى : من هذا الرجل الطويل ، ذو الشعر الأحمر ، هناك ؟

كيتلهاوس : انه المدعو بيكر ذو الشعر الأحمر .

درايسيجر : قولى لى ، هل هذا هو الرجل الذى أهانك قبل يومين ؟ أنت تعرفين الحكاية التى حكيتها لى ، عندما ساعدك يوهان على الركوب فى العربة .

السيدة درايسيجر (تلوى فمها وتمطه) : لم أعد أذكر شيئا من هذا .

درايسيجر : ينبغى أن تكفى الآن عن تصنع الغضب منى ، لابد أن أعرف الموضوع حالا . وقد سئمت الغلظة والوقاحة . اذا كان هذا الشاب هو الذى حكيت لى عنه ، فسأجره الى حيث يسأل عما فعل . (يدوى نشيد النساجين) اسمعى ، اسمعى .

كيتلهاوس (فى غاية الدهشة) : ألا يريد هذا العبث أن ينتهى الى نهاية ؟ لابد أن أقول الآن أيضا : لابد أن تتدخل الشرطة ، اسمح لى . (يذهب الى النافذة) أنظر ياأستاذ ڤاينهولد ، ليسوا جميعا من الشباب ، بل فيهم أيضا نساجون من الشيوخ يتزاحمون فى الجمع . رجال كنت لسنوات عديدة أعتبرهم من الأشراف الأتقياء ، يشتركون معهم . انهم يشتركون فى هذا العبث الفاحش الذى لامثيل له ، انهم يدوسون قوانين الرب بأقدامهم ، هل عساك تفكر فى الدفاع عن هؤلاء الناس ؟

ڤاينهولد : لا ، بكل تأكيد ، ياسيادة القسيس أعنى ياسيادة القسيس ، على سبيل المزاح ، انهم بشر جياع جهال ، وهم يعلنون عن سخطهم بالطريقة التى يعرفونها ، وأنا لا أنتظر مطلقا من هؤلاء الناس .

السيد كيتلهاوس (امرأة قصيرة ، نحيفة ، ذابلة ، أشبه بالعانس منها بالمرأة العجوز) : لا سيد ڤاينهولد ، ياسيد ڤاينهولد ، أرجوك .

درايسيجر : يا أستاذ ، أنا يؤسفنى جدا ، أنا لم آت بك الى بيتى لتلقى على محاضرات فى الانسانية وأنا مضطر لأن أطلب اليك أن تقصر نشاطك على تعليم صبيانى ، وأن تترك ماعدا ذلك من الشئون لى ، ولى وحدى . هل تفهمنى ؟

ڤاينهولد (يظل لحظة متجهما شاحب الوجه كأنه الميت ثم يبتسم ابتسامة ودية ويقول بصوت منخفض): بلاشك ، بلاشك ، لقد فهمتك . لقد توقعت هذا ، وانه ليتفق مع ما أهوى وأرجو . (يخرج) .

دكتور مصطفى ماهر